السَّنة الثانيةُ والتِّسعون بعد المئة

فيها نزل هَرْثَمَةُ بن أَعيَن نيسابورَ ومعه الأموالُ والسِّلاح والخِلَع، وأَظهر أنَّه إنَّما جاء مُودًّا لابن ماهان، وكتب عهودَ جماعةٍ على كُوَر خراسانَ ونَسَا وسَرْخَسَ وجُرْجان وغيرِها، واستكتمهم الحالَ إلى يومٍ معلوم، وسار إلى مَرو، فلمَّا بقي بينه وبينها مرحلة، كتب أسامِيَ أولادِ عليٍّ وأهلِه وأصحابِه وخواصِّه وعمَّاله في رِقاع، ودفع إلى كلِّ رجلٍ من ثقاته رقعةً وقال: احتفظ بمَن اسمُه معك، خوفاً أن يهربوا.

فلمَّا صار على ميلَين من مروَ، تلقَّاه[1] عليُّ بن عيسى في ولده وأهلِ بيته وقوَّاده وخواصِّه، فلمَّا وقعت عينُ هرثمةَ عليه، أَومأ إلى النُّزول خدمةً لعليِّ بن عيسى، فصاح به عليّ: واللهِ لَئن نزلتَ لأَنزلنّ، فاعتنقا وقَبَّل كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه، وسارا يتحدَّثان حتى وصلا إلى قنطرةٍ لا يجاوزها إلَّا فارس، فتأخَّر هرثمةُ وقال لعليّ: سِر على بركة الله، فامتنع، فأَقسم عليه هرثمة، فسار، ودخلا مروَ ونزلا منزلَ عليّ، ورجاءٌ الخادمُ مع هرثمةَ لا يفارقه، وقُدِّم لهم الطعام، فأكلوا، ثم دفع رجاءٌ الخادمُ كتابَ الرشيدِ إلى عليِّ بن عيسى، فلمَّا قرأ أوَّله سُقِط في يده، وتيقَّن أنَّه قد حلَّ به ما كان يتوقَّعه، ثم أمر هرثمةُ بتقييده وتقييدِ ولده وكتَّابه وعمَّاله، فلمَّا استوثق منهم، صعد المنبرَ في جامع مروَ، وأخبر الناسَ بإنكار أميرِ المؤمنين لِمَا بدا من عليِّ بن عيسى، وأنَّه لم يأمرْه بالظُّلم بل بالعدل، وقرأ عليهم عهدَه وطيَّب قلوبَهم، فعلت أصواتُهم بالتكبير والدعاءِ للرَّشيد.

ثم نزل ونادى في المسلمين وأهلِ الذِّمَّة: مَن كانت له مطالبةٌ أو وديعةٌ فلْيَحْضُر، فحضر الناسُ وأَحضروا الودائع، إلَّا رجلاً من أبناء مجوسِ مروَ يقال له: العلاءُ بن ماهيار[2]، وكان لعليٍّ عنده مال، فأَرسل إليه سِرّاً يقول: لكَ عندي مال، فإن أمرتَني بحمله حملتُه، وإلَّا صبرتُ للقتل فيك؛ إيثاراً للوفاء، وطلباً لجميل الثَّناء، فقال: لو

(١) في (خ): وتلقاه. وانظر تاريخ الطبري ٨/ ٣٣٤. وقد ذكر هذه الأحداث سنة ١٩١ خلافاً لغيره.

(٢) في تاريخ الطبري ٨/ ٣٣١: ماهان.

اصطنعتُ مثلَك ألفَ رجل ما طمع فيَّ السُّلطان، ثم قال: احفظْه عندك، فإنْ هلكتُ فهو لك، وإن بقيتُ رأيتُ فيه رأيي، وكان مالاً عظيماً، فيه جواهرُ وطيبٌ كثير، فاستصفى هَرْثمةُ جميعَ أموالِ عليّ، حتى نسائهم وسقوف منازلهم، وكان الرجالُ يفتِّشون بواطنَ النساء، ويجعلون ذلك وسيلةً إلى أغراضهم.

ولمَّا فرغ هرثمةُ من استصفاءِ الأموال، أقام عليًّا وولدَه وكتَّابه لمظالمِ الناس، فكلُّ مَن ادَّعى عليه بمالٍ أو بحقّ يقول له هرثمة: أُخرج من حقِّه، ثم يقول لصاحب الحقّ: ترى أن تؤجِّلَه؟ فيقول: نعم. ولم يَسلَم لعليٍّ من المال سوى ما كان عند المجوسيّ، فكان المجوسيُّ يجتمع بصاحب الحقِّ ويُرضيه من ذلك المال، وزعم رجلٌ أنَّ عليًّا أخذ منه دَرَقةً قيمتها ثلاثةُ آلافِ درهمٍ ومَطَلَه، فوقف له يوماً يطلب ثمنَها، فقذف أمَّه وشتمه، فطلب قَذْفَ أمِّه وثمنَ دَرَقته، فقال له هرثمة: ألك بيِّنة؟ قال: نعم، وأَحضر شهوداً، فقال هرثمةُ لعليّ: وجب عليك الحدّ، فقال له عليٌّ: هذا من فهمك وعلمِك! أَشهد أنَّ أمير المؤمنين قذفك غيرَ مرَّة، وأَشهد أنَّك قذفت أولادَك غيرَ مرة، فمَن يأخذ لهؤلاء بحدودهم منك! ومَن يأخذ من مولاك! فقال هرثمةُ لصاحب الدَّرقة: أُطلب ثمنَ دَرَقتِك الآن، ودعْ قذفَ أمِّك.

وكتب هرثمةُ إلى هارونَ يُخبره بما صنع، فكتب إليه يشكره ويصوِّب آراءه فيما فعل.

وفيها قدم الرشيدُ من الرقَّة إلى بغدادَ في السُّفن لخمسٍ بقين من ربيعٍ الأوَّل، واستخلف ابنَه القاسمَ على الرَّافقة، وضمَّ إليه خُزَيْمةَ بن خازم، وسار من بغدادَ لخمسٍ خلونَ من شعبان، فنزل النَّهروان، واستخلف على بغدادَ محمَّداً الأمين.

وقال ذو الرِّياستين: قلتُ للمأمون لمَّا عزم هارونُ على المسير إلى خراسانَ لحرب رافع بن الليث: لستَ تدري ما يحدث بأبيك، فإنْ أقمت ببغداد، فأَحسنُ ما يُصنع بك أن تُخلعَ من العهد؛ لأنَّ محمَّداً ابنُ زبيدة، وأخواله بنو هاشم، وقد عرفتَ زبيدةَ وأموالَها. فسأله أن يكونَ معه، فأذن له بعد امتناعٍ منه[1].

وقال ابنُ الصباح الطبريُّ مولى عيسى بنِ جعفرٍ الهاشمي: شيَّع أبي هارونَ حتى

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٣٣٨.

خرج إلى خراسانَ، ومضى معه إلى النَّهروان، فجعل يحادثه في الطَّريق، إلى أن قال له: يا صباح، لا أَحسبك تراني بعدها أبداً، قال: فقلت: بل ردَّك الله سالماً قد فتح اللهُ عليك، وأَراك في عدوِّك ما تحبّ، فقال: يا صباح، لعلك لا تدري ما أَجد، قلت: لا والله، قال: تعالَ حتى أُريَك، فعدل عن الطريق قدرَ مئةِ ذراعٍ واستظلَّ بشجرة، وأَومأَ إلى خدم الخاصَّة فتنحَّوا، ثم قال: بأمانة اللهِ يا صباحُ أن تكتمَ عليّ، فقلت: أنا عبدُك، فكشف عن بطنه، فإذا عِصابةٌ من حريرٍ حوالي بطنِه وظهرِه قد عَصَبها، وكلُّ بَدَنه نِقاباتٌ وقروحٌ عليها المَراهم، فقال: هذه حالي الباطنةُ منذ سنةِ تسعٍ وثمانين، واللهِ ما علم بها إلَّا ابنُ بختيشوع عينٌ عليَّ لمحمَّد، ومسرورٌ عينٌ عليّ لعبد الله، وقد بلغني أنَّهما أَخبراهما بمرضي، وليس فيهم إلَّا مَن يُحصي أنفاسي، ويعدُّ أيَّامي، ويستطيل دَهري، فإن أردتَ أن تعرفَ ذلك فالساعةَ أدعو بدابَّة فيجيؤونني ببِرذونٍ أَعجفَ قَطُوف[1]؛ ليزيدَ في عِلَّتي. ودعا ببِرذون، فجاؤوه ببرذونٍ كما وصف، فركب ونظر إليَّ وقال: أَلَمْ أقلْ لك؟ فدعوتُ له، فقال: اِرجع إلى أشغالك غيرَ مودَّع، فنزلت فقبَّلت رِكابَه، فكان آخرَ العهدِ به.

وفيها توفِّي

إسماعيلُ بن جامعٍ

ابن إسماعيلَ بن عبدِ الله بن المطَّلب بنِ وَداعة، أبو القاسم المكِّي.

كان قد قرأ القرآنَ وسمع الحديث، فترك ذلك وتعلَّم الغناءَ.

[وقد ذكره أبو الفَرَجِ الأصبهانيُّ وذَكَرَ من أخباره] قال: لحقتني ضائقةٌ شديدةٌ بمكَّة، فانتقلت إلى المدينة، فخرجتُ ذاتَ يومٍ وما أملك إلَّا ثلاثةَ دراهم، وإذا بجاريةٍ على رقبتها جرَّةٌ تريد الرَّكِيَّ[2] وهي تقول: [من الطويل]

شَكَونا إلى أَحبابِنا طولَ ليلِنا[3] فقالوا لنا ما أَقصرَ الليلَ عندنا

(١) القطوف: التي ضاق مشيها. القاموس المحيط (قطف).

(٢) الركية: البئر. وما سلف بين حاصرتين من (ب).

(٣) في (خ): ليلتنا، والمثبت من الأغاني ٦/ ٣١١، والمنتظم ٩/ ١٩٩، والبداية والنهاية ١٤/ ١٢ .

وذاك لأنَّ النومَ يَغشى عيونَهمْ سِراعاً ولا يَغشى لنا النومُ أَعيُنا
إذا ما دنا الليلُ المُضِرُّ بذي الهوى جَزِعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنَّهمْ كانوا يُلاقون مِثلَما نلاقي لَكانوا في المَضاجع مِثلَنا

[قال]: فأخذ الغناءُ بقلبي، فلم يَدُرْ لي منه حرف، فقلت: يا جارية، ما أدري أوجهُك أحسنُ أم غناؤك! فلو شئتِ أَعدتِ، فقالت: مرحباً وكرامة، ثم أَسندتْ ظهرَها إلى جدارٍ، وابتعثت تغنِّيه، فما دارَ لي منه حرف، فقلت: لو تفضَّلتِ مرَّةً أخرى، فَقطَّبت وكَلَحت، وقالت: ما أعجبَ أمرَكم! يجيءُ الواحدُ منكم إلى الجارية عليها الضريبةُ فيشغلها عن ضريبتها، فرميتُ إليها بالثَّلاثة الدراهم، فأخَذَتْها وقالت: أَحسبك تأخذ بهذا الصوتِ ألفَ دينارٍ وألفَ دينارٍ وألفَ دينار، [ثم افترقنا وقد حفظتهُ، وعنَّ لي الخروجُ إلى بغداد، فدخلتها ولا أدري أين آخُذ، فدخلتُ مسجداً قريباً من دار الفضلِ بن الربيع، وإذا رجل يصلِّي آخرَ الناس والخدمُ ينتظرونه، فلمَّا فرغ من صلاته، نظر إليَّ وقال: أَحسبك غريباً، قلت: نعم، قدمتُ الساعةَ ولا أعرف أحداً، ولا صناعتي ممَّا يرغب فيها أهلُ الخير، فقال: وما صناعتُك؟ قلت: مغنِّي، فوثب ووكَّل بي رجلاً ومضى، فقلت للرجل: مَن هذا؟ قال: سَلَّام الأبرش.

ثم حُملت إلى دار الضيافة وأُحضر لي طعام، فأكلت، وخِلعةٌ فلبست، وجيء بي إلى دارٍ فيها أسِرَّة، فأجلسوني على سريرٍ منها، وهناك جَوارٍ في حجورهنَّ العيدان، وستارةٌ مضروبة، ورجلٌ جالس بين الجوراي في حجره عود، فخرج خادم، فقال الرَّجل للجواري: غنِّين، فغنَّين بصوت لي، فغيَّرنه، فقال لي الخادم: غنِّ، فغنَّيت بصوت لي: [من الكامل]

عوجِي عليَّ فسلِّمي جَبْرُ فيم الوقوفُ وأنتمُ سَفْرُ
ما نلتقي إلَّا ثلاثَ مِنًى حتى يفرِّقَ بيننا الدهرُ

فتزلزلت الدار، وخرج الخادمُ وقال: ويحك لمن هذا الصَّوت؟! قلت: لي. فدخل ثم خرج فقال: كذبتَ، هذا لابن جامع، فقلت: أنا ابنُ جامع، فما أحسستُ إلَّا بالرشيد وقد خرج من وراء السِّتارة ومعه جعفرُ بن يحيى وقال: ابنُ جامع؟ فقلت: نعم، قال: ومتى قدمتَ؟ فحدَّثته الحديث، فعجب وأمر لي بدار، وقال: أَبشِر وابسُط أَمَلَك، غنِّ،

فغنَّيته بأبيات الجارية، فدعا بكيسٍ فيه ألفُ دينارٍ فأعطاني إياه، ثم قال: أَعِدْه، فأعدته، فأعطاني ألفَ دينار، ثم قال أَعِده، فأعدته، فأَعطاني ألفاً أخرى، فتبسَّمت، فقال: مِمَّ تتبسَّم؟ فحدَّثته الحديث، فعجب، وأمر لي بدارٍ وفرس وخيلٍ وخدم وأثاثٍ ووصائف، فأصبحت أغنى الناس. قلت: حكايةٌ طويلة اختصرتُها][1].

بُهلول المجنون[2]

من أهل بغداد، كان يأوي إلى المقابر [ووعظ الرشيدَ في سنة ثمانٍ وثمانين وهو يريد الحجّ، وقد ذكرناه.

وكان له كلامٌ حسن وإشاراتٌ عجيبة. حدثنا جدِّي رحمه الله بإسناده عن] سريٍّ السَّقطي قال[3]: خرجتُ يوماً إلى المقابر، فرأيتُ بُهلولاً قد دلَّى رجلَيه في قبرٍ وهو يلعب بالتُّراب، فقلت له: أيَّ شيءٍ تصنع هاهنا؟ فقال: أنا عند قومٍ لا يؤذونني، وإن غبتُ عنهم لا يغتابونني، فقلت له: لا تكون جائعاً؟ فقال: [من الطويل]

تجوَّع فإنَّ الجوع من عَلَم التُّقى ... وإنَّ طويل الجوعِ يوماً سيشبعُ

فقلت له: إنَّ الخبز قد غلا، فقال: واللهِ ما أبالي ولو بلغَتْ كلُّ حبةٍ مثقالاً، علينا أن نعبدَه كما أمر، وعليه أن يرزقَنا كما وعد، ثم ولَّى وهو يقول: [من الرمل]

أُفٍّ للدُّنيا فليست لي بدارِ ... إنَّما الراحة في دار القرارِ

أبَتِ الساعاتُ إلَّا سرعةً ... في بِلَى جسمي بليلٍ أو نهار

وفي رواية: أَنشد[4]: [من البسيط]

يا مَن تمتَّع بالدنيا وزينتِها ... ولا تنام عن اللذَّات عيناهُ

أَفنيتَ عمْرك فيما ليس تدركهُ ... تقول لله ماذا حين تلقاه

[وفيها توفِّي

---

(١) وهي مختصرة جداً في (خ)، والمثبت من (ب)، وانظرها بطولها في الأغاني ٦/ ٣١١ فما بعد، والفرج بعد الشدة ٣/ ٥ فما بعد.

(٢) المنتظم ٩/ ٢٠٢، صفة الصفوة ٢/ ٥١٦، تاريخ الإسلام ٤/ ٨١٦.

(٣) في (خ): قال سري السقطي.

(٤) في (خ): وقال. وكلا الروايتين في صفة الصفوة ٢/ ٥١٦-٥١٧.

صَعْصَعَةُ بن سلَّام

(ويقال:)[١] ابنُ عبدِ الله، أبو عبدِ الله الدِّمشقي.

ذكره أبو عبد الله الحُميديُّ في تاريخ الأندلس[٢] وقال: هو أندلسي. والأصحُّ أنَّه دمشقي

دخل الأندلس، وهو أوَّل مَن دخلها من الفقهاء أصحابِ الأوزاعي، وهو أوَّل مَن غرس الشجرَ بجامع قُرْطُبة، وكان في زمان هشامِ بن عبد الرحمن الدَّاخلِ مقيماً بها إلى أن مات بها في هذه السَّنة. وقال الحُميديُّ: مات في سنة اثنتين وتسعين ومئة.

وذكره أبو سعيد بنُ يونسَ فيمن قدم مصر، قال: وتوفِّي في سنة ثمانين ومئة[٣]، ودُفن بجزيرة الأندلسِ في ولاية الحكمِ بن هشام بنِ عبد الرحمن].

عبدُ الله بن إدريسَ

ابنِ يزيدَ بن عبدِ الرَّحمن، أبو محمَّد الأَوْدي[٤]. من الطبقة السابعةِ من أهل الكوفة.

ولد سنةَ خمسَ عشرةَ ومئة، وقيل: سنةَ عشرين. وتوفِّي بالكوفة في عشر ذي الحِجَّة.

وكان ثقةً إماماً عالماً زاهداً عابداً وَرِعاً مأموناً حجَّة، كثيرَ الحديث، صاحبَ سنَّة وجماعة، لا يستقضي أحداً يسمع عليه الحديثَ حاجة.

قال الحسنُ بن ربيع: كنت عند عبد الله بنِ إدريس، فلمَّا قمت قال لي: سل عن سعر الأُشنان[٥]، فلمَّا مشيت ردَّني وقال: لا تسأل؛ فإنَّك تكتب مني الحديث، وأنا أكره أن أسألَ من سمع مني الحديث.

وكان الإمام أحمدُ رحمة اللهِ عليه يقول: عبدُ الله بن إدريسَ نَسيجُ وَحْدِه.

---

(١) ما بين حاصرتين من تاريخ دمشق ٨/ ٣٠٣ (مخطوط)، وتاريخ الإسلام ٤/ ١١٣٠، والبداية والنهاية ١٤/ ١٥ . والترجمة غير موجودة في (خ).

(٢) المسمى بجذوة المقتبس، والكلام في ص٢٤٤.

(٣) في (ب): ثمان وثمانين ومئة. والتصويب من المصادر، والتراجم الآتية ليست في (ب).

(٤) في (خ): الأزدي، والتصويب من المصادر. انظر طبقات ابن سعد ٨/ ٥١١، وتاريخ بغداد ١١/ ٦٩، والمنتظم ٩/ ٢٠٢، وغير ذلك .

(٥) نوع من الشجر يستعمل في غسل الثياب والأيدي.

وأقدمه هارونُ إلى بغدادَ ليولِّيه القضاء، فامتنع وعاد إلى الكوفة، فأَقام بها حتى توفِّي.

وقال فلان[1]: سألتُ وكيعاً عن مَقدَمه هو وابنُ إدريس وحَفْصُ بن غياثٍ على الرشيد، فقال: ما سألني عن هذا أحدٌ قبلك، قَدِمنا على هارونَ فأَقعدنا بين السَّريرين، وكان أوَّل مَن دعا به أنا، فقال: يا وكيع، قلت: لبَّيك يا أميرَ المؤمنين، قال: إنَّ أهل بلدِك طلبوا مني قاضياً وسمَّوك لي فيمن سمَّوه، وقد رأيت أن أشركَك في أمانتي وصالحِ ما أَدخل فيه من أمر هذه الأمَّة، فخذ عهدَك وامض، فقلت: أنا شيخٌ كبير، وإحدى عينَيَّ ذاهبة والأخرى ضعيفة، فقال هارون: اللهم غُفراً، خذ عهدَك أيها الرجلُ وامض، فقلت: واللهِ لئن كنتُ صادقاً إنه لينبغي أن تقبلَ مني، ولئن كنتُ كاذباً فما ينبغي لك أن تولِّي القضاءَ كاذباً، فقال: اخرج، فخرجت ودخل ابنُ إدريس، وكان قد وُسِمَ له منه وَسْم، أي: خُشونة، فسمعنا صوتَ رُكبتَيه على الأرض حين بَرَك، وماسمعناه يسلِّم إلَّا سلاماً خفيفاً، فقال له هارون: أتدري لمَ دعوتك؟ قال: لا، قال: إنَّ أهل بلدِك طلبوا مني قاضياً، فقال ابنُ إدريس: لا أَصلح للقضاء، فنكت هارونُ بإصبعه وقال: وددت أنِّي لم أكن رأيتك، فقال له ابنُ إدريس: وأنا واللهِ وددت أنِّي لم أكن رأيتك، فقام وخرج، ودخل حفصُ بن غياث، فقال له كما قال لنا، فقبل عهدَه وخرج، وأتانا خادمٌ ومعه ثلاثةُ أكياسٍ في كلِّ كيس خمسةُ آلافِ درهم، فقال: أميرُ المؤمنين يُقرئكم السَّلام ويقول: قد لزمتكم مؤنةٌ في شخوصكم، فاستعينوا بهذه على سفركم.

قال وكيع: فقلت له: أَقرِئ أميرَ المؤمنين السلامَ وقل له: قد وَقَعَتْ مني بحيث يحبُّ أمير المؤمنين، وأنا عنها مُسْتَغنٍ، وفي رعيَّة أميرِ المؤمنين مَن هو أحوجُ مني إليها، فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يصرفَها إلى مَن أحبّ. وأمَّا ابن إدريس، فصاح به: مُرَّ من ها هنا. وأمَّا حفص، فقبلها. وخرجت الرقعةُ لابن إدريسَ من بيننا: عافانا اللهُ وإياك، سألناك أن تدخلَ في أعمالنا فلم تفعل، ووصلناك من أموالنا فلم تقبل، فإذا

(١) في تاريخ بغداد ١١/ ٧٠، والمنتظم ٩/ ٢٠٣، وصفة الصفوة ٣/ ١٦٧: شيخ على باب بعض المحدثين.

أتاك ابني المأمونُ فحدِّثه إن شاء الله. فقال للرسول: إذا جاءنا مع الجماعةِ حدَّثناه إن شاءَ الله.

ثم مضينا، فلمَّا سِرنا إلى الياسرية[١] حَضَرَت الصلاة، فنزلنا نتوضَّأ. قال وكيع: فنزل إليَّ شرطيٌّ محمومٌ نائم في الشمس عليه سوادُه، فطرحت كسائي عليه وقلت: يدفأ إلى أن أتوضَّأ، فجاء ابنُ إدريس فاستلبه ثم قال لي: رَحِمتَه لا رحمك الله! في الدنيا أحدٌ يرحم مثلَ هذا! ثم التفت إلى حفصٍ فقال: يا حفص، قد علمتُ حين دخلتَ إلى سوق أَسَدٍ، وتهيَّأتَ، ودخلت الحمَّام، وخَضَبتَ لِحيتك؛ أنَّك ستلي القضاء، واللهِ لا أكلِّمك حتى تموت، فما كلَّمه حتى مات.

وقال الإمام أحمدُ رضي الله عنه: رأيتُ على عبد اللهِ بن إدريس جُبَّةَ لُبُودٍ وقد أتت عليها الدُّهور والسِّنون.

وكان ابنُ إدريس يقول: لو انقطع رجلٌ إلى رجل لَعرف له ذلك، فكيف بمَن له السماواتُ والأرض.

ولمَّا نزل الموتُ به بكت ابنتُه، فقال: لا تبكي، فقد ختمتُ القرآنَ في هذا البيتِ أربعةَ آلاف ختمة.

أَسند عن أبيه وعن الأعمش وغيرِهما، وجمع بين العلم والزُّهد، وروى عنه مالكُ ابن أنس[٢] وغيرُه، وأثنَوا عليه الأئمَّة.

وقال له ولدُه[٣]: إنَّ هذا البقَّال الذي في المَحَلَّة يُغلي علينا الحوائج، أَفلا نشتري لك[٤] من السُّوق؟ قال: لا، إنَّما جاوَرَنا ليربحَ علينا، رحمةُ الله عليه.

عليُّ بن ظَبْيان

أبو الحسن العَبْسيُّ الكوفي. كان عالماً، متواضعاً، جليلاً، نبيلاً، زاهداً، عابداً،

(١) قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى بينها وبين بغداد ميلان. معجم البلدان.

(٢) وهو من شيوخه.

(٣) في (خ): والده، والمثبت من تاريخ بغداد ١١/ ٧١.

(٤) في (خ): له.

عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة.

وكان حَسَناً في الحكم، تقلَّد الشرقية[١]، ثم تقلَّد قضاءَ القضاة عن الرشيد، وكان يجلس على باريَّة[٢]، فقيل له: قد كان مَن قبلك من القضاة يجلسون على الوِطاء ويتَّكئون، فقال: إني لأَستحيي من الله أن يجلسَ بين يدَيَّ حُرَّان مسلمان على باريَّة وأجلسَ أنا على وطاء، واللهِ لا جلست إلَّا على ما يجلس عليه الخصوم.

وكان الرشيد إذا سافر يُخرجه معه، فلما خرج إلى خراسان في هذه السنة، أخرجه معه، فتوفِّي بقَرْمِيسين.

حدَّث عن عُبيد الله[٣] بنِ عمر العُمريِّ وغيره، وروى عنه داودُ بن رُشَيد وغيره، وكان ثقة، وضعَّفه بعضهم[٤].

الفضلُ بن يحيى بنِ خالد البَرْمَكيّ

كان متكبِّراً جدّاً، عَسِرَ الخُلق، وكان أجودَ من جعفرٍ وأندى راحة، ومولدُه في ذي الحِجَّة سنَة سبع وأربعين ومئة، ومولد هارونَ أوَّل يوم من المحرَّم سنةَ ثمانٍ وأربعين، فأَرضعت الخَيْزُرانُ الفضلَ، وأرضعت أمُّ الفضل هارونَ أياماً، وأمُّ الفضل زُبيدةُ بنت منين[٥]، بربريةٌ من مولَّدات المدينة.

وفي الرَّضاع يقول مروانُ بن أبي حَفْصَةَ يمدح الفضلَ من قصيدة: [من الطويل]

كفى لك فضلاً أنَّ أفضلَ حُرَّةٍ ... غَذَتْك بثديٍ والخليفةَ واحدِ
لقد زان[٦] يحيى في المشاهد كلِّها ... كما زان يحيى خالداً في المشاهد

---

(١) في (خ): الشريعة، والمثبت من تاريخ بغداد ١٣/ ٤٠٤، والمنتظم ٩/ ٢٠٥.

(٢) البارية: الحصير المنسوج. القاموس المحيط (بور).

(٣) في (خ): عبد الله، والتصويب من المصادر.

(٤) هو ضعيف باتفاق المحدثين، ولم أرَ من وثقه، انظر تهذيب الكمال (٤٦٨١)، وتاريخ الإسلام ٤/ ١١٦٩.

(٥) اضطرب هذا الاسم في (خ) والمصادر. انظر تاريخ بغداد ١٤/ ٢٩٢ (طبعة الدكتور بشار معروف) وطبعة دار الكتاب العربي ١٢/ ٣٣٤، والمنتظم ٩/ ٢٠٨، والبداية والنهاية ١٤/ ١٩، وتاريخ الإسلام ٤/ ١١٨٢، والسير ٩/ ٩١.

(٦) في تاريخ بغداد ١٤/ ٢٩٢، والمنتظم ٩/ ٢٠٨، والوفيات ٤/ ٢٧، والبداية والنهاية ١٤/ ٢٠: زنت.

ووهب الفضلُ لطبَّاخه مئةَ ألف درهم، فعوتب في ذلك، فقال: إنَّ هذا صَحبني ولم يكن لي شيء، واجتهد في خدمتي ونُصحي، وقد قال الشاعر: [من البسيط]

إنَّ الكرامَ إذا ما أيسروا ذَكَروا مَن كان يَعتادهم في المنزل الخَشِنِ[1]

ووهب لبعض الأدباءِ عشرة آلاف دينار، فبكى الأديب، فقال: أتبكي استقلالاً لها؟ فقال: لا والله، ولكن أبكي كيف تواري الأرضُ مثلَك.

وقال الجَهْم: أضَقْتُ إضاقةً شديدة، فأصبحتُ ذات يوم وليس عندي ما آكل، لا أنا ولا غلامي ولا دابَّتي، فقلت للغلام: أسرِج لي الدابَّة، فأَسرجها وركبت، فلمَّا صرت بسوق يحيى، إذا بالفضل في مَوكبٍ عظيم، فسرت معه، فبينا نحن كذلك، إذا بغلام على رأسه طَبَق، فوقف على بابٍ وصاح: يا فلانة، باسم جارية، فوقف الفضلُ طويلاً يرتاح إلى صوت الغلام، ثم سار وقال: تدري ما سببُ وقفتي؟ قلت: لا، قال: كانت لأُختي جارية، وكنت أحبُّها حبًّا شديداً، وأستحيي من أختي أن أطلبَها منها، فلمَّا كان في هذا اليوم، زيَّنتْها أختي، وألبستها أحسنَ الثياب والحُلِيِّ، وبَعَثَتْ بها إلي، فكنتُ معها في ساعة ما مرَّ من عمري ألذُّ منها، فجاءني رسولُ أمير المؤمنين يطلبني، فقطع عليَّ لذَّتي، فركبت، ولمَّا صرت إلى هذا المكان، دعا هذا الغلامُ باسم تلك الجارية، فارتحتُ لندائه. فقلتُ: أصابك ما أصاب أخا بني عامرٍ[2] حيث يقول: [من الطويل]

وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيف من مِنى فهيَّج أشجانَ الفؤادِ وما يدري

دعا باسم ليلى غيرَها فكأنَّما أطار بليلى طائراً كان في صدري

فقال: اكتب لي هذين البيتَين، ولم يكن معي ورق، فعدلتُ إلى بعض البقَّالين، فرهنتُ خاتَمي عنده على ورقةٍ وكتبت له البيتين ولحقتُه بهما، فقال: اِرجع إلى منزلك، فرجعت، فقال لي غلامي: هاتِ الخاتمَ حتى أَرهَنَه على ما نأكل، فقلت: قد رهنته. فما أمسيتُ حتى بعث إليَّ الفضلُ بثلاثين ألفَ درهمٍ جائزةً، وعشرةِ آلافٍ سلفاً من رزقٍ رُزقته في كلِّ شهر أَجراه لي.

---

(١) نسب البيت لدعبل وأبي تمام وإبراهيم الصولي. انظر ديوان دعبل ص١٩٢، والشعر والشعراء ٢/ ٨٥٢، والعقد الفريد ٢/ ١٦٨، وبهجة المجالس ٢/ ٧١٦، ومعجم الأدباء ١/ ١٩٢.

(٢) هو مجنون ليلى، والبيتان في ديوانه ص١٦٣، وهما أيضاً في ديوان نصيب بن رباح ص٩٤.

وقال عبدُ الله بن الحسن[١] العلوي: أتيتُ الفضلَ بن يحيى، فكلَّمته في دَين عليَّ ليكلِّم لي أميرَ المؤمنين، فقال: كم دَينك؟ قلت: ثلاثُ مئة ألفِ درهم، فقال: نعم. فخرجتُ من عنده وأنا مغمومٌ لضعف ردِّه، فمررت ببعض إخواني مستريحاً له، فما وصلتُ إلى منزلي إلا والمالُ قد سبقني.

ومرَّ الفضل بعَمرو بنِ جَميلٍ[٢] التَّميميِّ وهو في مضربه يُطعم الناسَ، فقال: ينبغي لنا أن نُعينَ عَمراً على مروءته، فبعث إليه بألف ألفِ درهم.

وكان أبانُ بن عبد الحميدِ كاتبُ الفضل فيه تِيهٌ شديد، فكتب إلى الفضل: [من الخفيف]

أنا من نعمة[٣] الأميرِ وكنزٌ ... من كنوز الأميرِ ذو أَرباحِ
كاتبٌ حاسب أديب خطيب ... ناصحٌ زائد على النُّصَّاح
شاعرٌ مُفلِق أخفُّ من الرِّيـ ... ـشةِ ممَّا يكون تحت الجَناح
ليَ في النَّحو فطنةٌ وذكاء[٤] ... أنا فيهِ قلادةٌ لِوشاح
لو رمى بيْ الأميرُ أصلحه اللـ ... ـهُ رماحاً صَدَمتُ حدَّ الرِّماح
ثم أَروي من ابن سيرينَ في الفِقـ ... ـهِ[٥] بقولٍ منوَّرِ الإيضاح[٦]
كم وكم [قد] خَبَأتُ عندي حديثاً ... هو عند الأمير كالتُّفَّاح
لو دعاني الأميرُ عايَن منِّي ... شَمَّرِيًّا كالجُلْجُل الصيَّاح[٧]

من أبيات.

(١) في المنتظم ٩/ ٢١٠: الحسين.

(٢) في تاريخ بغداد ١٤/ ٢٩٤: جمل، وهو الصواب، انظر الإكمال لابن ماكولا ٢/ ١٢١.

(٣) في المصادر: بغية.

(٤) في العقد الفريد ٤/ ٢٠٤، وتاريخ بغداد ١٤/ ٢٩٦: ونفاذ. وقد ذكر صاحب الأغاني ٢٣/ ١٦٠، والخزانة ٨/ ١٧٥ أربعة أبيات من القصيدة.

(٥) في (خ): للفقه.

(٦) في العقد الفريد: الإفصاح.

(٧) الشَّمَّري والشِّمِّري والشُّمُري والشَّمَري والشِّمِّير والمشمِّر: الماضي في الأمور المجرب. والجلجل: الجرس الصغير. القاموس المحيط (شمر) (جلل).

فأعطاه الفضلُ مالاً عظيماً، ففرَّقه في الشعراء، وبعث منه إلى أبي نُواسٍ بدرهم واحدٍ ناقص، فقيل له في ذلك، فقال: أعطيت كلَّ واحد على قَدْر شعره، وبلغ أبا نُواس فهجاه، وكان قصيراً طويلَ اللحية كبيرَ الأنف: [من الخفيف]

كان أَوْلى بقلَّة الحظِّ مني ... المسمَّى بالجُلْجُل الصيَّاحِ
لِحيةٌ جَعْدة وأنفٌ طويل ... وسوى ذاك ذاهبٌ في الرِّياح
باردُ القولِ مظلمُ القلبِ تيَّا ... هٌ معيدُ الحديثِ[1] سَمجُ المُزاح

فبعث إليه أَبانٌ بألف درهمٍ وقال: لا تُظهرْها، فقال: واللهِ لو أعطاني مئةَ ألف درهمٍ ما أخفيتُها، ولا بدَّ من إظهارها، وبلغ الفضلَ فقال: أعطيناه ألفَ ألفِ درهم، فكان حظُّ أبي نُواسٍ منها أقلَّ من درهمٍ مع طول لسانه! فقيل له: كذب عليه، فقال: أليس قد قيل؟! وقد رماه بخمسٍ لا يتَّصف بواحدةٍ منها إلَّا جاهل، يعني البيتَ الأخير، وأَبعده عنه.

ذِكر وفاته:

لمَّا عزم الرشيدُ على خراسان، أَحضر الفضلَ بالرقَّة من الحبس وقال له: ويحك يا فضل، لقد كسبتْ يداك شرًّا طويلاً، وجنى عليك جهلُك[2] عذاباً وبيلاً، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] فقال له: قتلتَ أخي، ومات أبي في حبسك، وأنا على الأَثر، مع تعزيزِنا لسلطانك، وتشييدِنا لملكك، وبراءةِ ساحتنا، وسترد فتَعلم، وتندم حيث لا ينفعك النَّدم. فردَّه إلى الحبس، فمات في رمضان قبل موتِ هارونَ بشهور.

وقيل: مات سنةَ ثلاثٍ وتسعين في المحرَّم قبل موتِ الرشيد بيسير، أصابه ثِقَلٌ في لسانه وشفتِه، وقلَّ نظره. وكان يقول: ما أحبُّ أن يموتَ هارون؛ فإنَّ أمري يَقربُ من أمره[3]. وكانت وفاتُه يومَ السبت، فأُخرجت جنازتُه، فكان يوماً عظيماً، بكى الناسُ

(١) في (خ): تيهاً يقبل الحديث. ولا يستقيم به الوزن. والمثبت من العقد الفريد وطبقات ابن المعتز ص٢٠٤.
(٢) في (خ): جهلاً، ولعله سبق قلم.
(٣) كذا في تاريخ الطبري ٨/ ٣٤١، وابن الأثير ٦/ ٢١٠، وفي وفيات الأعيان ٤/ ٣٦ أن القائل هو الرشيد، قاله عندما بلغه موته.

عليه وحزنوا وصلَّوا عليه.

وكان يعطي السجَّانين في كلِّ شهرٍ عشرةَ آلاف درهم.

قال صالحٌ[1] في بني بَرمَك: [من الرمل]

يـا بـنـي بَـرْمَـكَ واهـاً لـكـمُ ... ولأيَّـامـكـم الـمـقـتَـبَـلَـهْ
كـانـت الـدُّنـيـا عَـروسـاً بـكـمُ ... وهـي الـيـوم ثَـكـولٌ أَرْمَـلَـه

(١) هو صالح بن طريف، كما في ثمار القلوب ص٢٠٢، ووفيات الأعيان ١/ ٣٤١.